أسلوب الشرط من المنظور البلاغي

م.د. دعاء عدنان توفيق الركابي
doaa.adnan@cois.uobaghdad.edu.iq
جامعة بغداد كلية/ العلوم الإسلامية

الملخص

يُمثل أسلوب الشرط شكلاً من أشكال التراكيب المبنية على العلاقات الترابطية داخل الجملة تارةً ، والتي تتشاكل أيضاً مع العلائقية النصية تارةً أُخرى ، فهو يقوم على مبدأ التعالق الدلالي بين فعل الشرط وجوابه بأداة، فضلاً عن السياق النصي الذي يُنسج فيه ، ممّا يؤدي إلى انتاج معانٍ مختلفة بحسب البناء الأسلوبي للشرط وسياقه ، فبحث البلاغيون تلك العلاقات وانتاجها الدلالي ولاسيّما عند السكاكي والبلاغيين من بعده ، إذ درسوا التآلف المبني على التقييد والتعلّق في البنية الشرطية وما يحمله من سماتٍ بنائية ودلالية.

الكلمات المفتاحية الأسلوب ، الشرط ، التعالق ، البنية.

Conditional Style from a Rhetorical Perspective

Ph.D : Duaa Adnan Tawfeeq
University of Baghdad\College of Islamic Sciences

Abstract

The conditional style represents a form of structures built on associative relationships within the sentence sometimes, which also coincides with textual relationships at other times. It is based on the principle of semantic interrelation between the conditional verb and its response with a tool, as well as the textual context in which it is woven, which leads to the production of different meanings according to the stylistic structure of the condition and its context. Rhetoricians looked for those relationships and their semantic production especially with Al-Skaki and the rhetoricians after him, as they studied the harmony built on restriction and attachment in the conditional structure and what it carries of structural and semantic features.

Keywords : Style, Condition, Interrelation, Structure.

المقدمة

إن الدراسات البلاغية وضعت على طاولتها أساليب الخطاب المتنوعة ، باحثةً في تشكيل بنيتها التركيبية وعطائها الدلالي ، وما تحمله من طاقات تعبيرية بحسب السياقات والمقامات ، فسلّط البلاغيون الضوء على أسلوب الشرط وبنيته التركيبية ؛ كونه من أساليب تقييد المسند في الكلام ، فهو يمتلك بنية نصية ينفرد بها عن الأساليب الأُخر ، تنبثق اجرائيته من عملية الترابط بين الشرط والجواب ، أو تعلّق الجواب بفعل الشرط ، وتحقّقه متوقف عليه ، وتتكوّن هذه التعالقية بوساطة أداة شرطية لها هي الأخرى وقع دلالي.

وانطلقت دراسات البلاغيين في سبر غور هذه البنية ودلالتها بشكل مفصّل في مفتاح العلوم عند السكاكي، وفي شرح المفتاح عند الخطيب ، ومن تبعه من شراح التلخيص ، واهتمّوا بأدوات ثلاث (إذا ، إن ، لو) دون غيرها ؛ لما تحمله من دلالات متغيّرة بحسب السياق وفعل الشرط الذي تقترن به ، فبحثوا في تفاصيل المعاني للأداة والشرط والجواب ، والتعالق الدلالي المتشكّل في هذه البنية الأسلوبية ، مع ورود شواهد قرآنية وشعرية كثيرة موضّحين جمالية التعبير الذي انتجته أسلوب الشرط في نقل الخطاب إلى متلقيه.

ومن جمالية هذا الأسلوب وبنيته التركيبية جاءت هذه الدراسة للبحث في مفهومه عند البلاغيين، ومساحته الاشتغالية التي تتولد منها الدلالات ، وقسمت على ثلاثة محاور وتوطئة عنوانها (أسلوب الشرط اجرائياً) ، وعنوان المحور الأول : (الجملة الشرطية بين الأسلوب الخبري والإنشائي) ، واختص المحور الثاني بـ(العلاقة البنائية بين الأداة والزمن في أسلوب الشرط) ، وبحث المحور الثالث في : (أسلوب الشرط وأثره الدلالي) على مستويين : الأول : (البنية المعيارية لأسلوب الشرط) والثاني : (البنية الانزياحية لأسلوب الشرط) وخُتمت الدراسة بجملة من النتائج ، وقائمة للمصادر والمراجع.

توطئة : أسلوب الشرط إجرائياً

تنماز العربية بتنوع الأساليب المستعملة فيها على وفق مقامات خطابية متنوعة ، فالكلام يُصبّ في قوالبَ مختلفة بين حذف وذكر ، وتنكير وتعريف ، وتقييد وترك ... وغيرها من أساليب الكلام ، التي يفرضها سياق المتكلّم بحسب معطياته التعبيرية؛ للتواصل مع متلقٍ يفهم المعنى بوساطتها ، فتكون دليلاً تأويلياً لما تحمله من دلالات ومعانٍ ، ويعد الشرط أحد الأساليب التي يستثمرها المتكلم لغرض يرمي إليه ، لذا أخذ حيزاً في المدونات التراثية عند البلاغيين ، ولا سيّما عند السكاكي (ت٦٢٦هـ) والخطيب القزويني (٧٣٩هـ) وشراح التلخيص.

والجملة الشرطية تتمثّل في الترابط والتعالق الدلالي بين الشرط والجزاء ، فـ((الشرط فيها قيد للحكم في الجملة التي هي جواب الشرط))[١]، فالترابط الداخلي نابع من النسق النصي الذي ينسجه المتكلّم ؛ جراء التقييد التركيبي بين فعل شرطي وجواب له ، ((وهكذا تظل التراكيب في

النص مشدودة في اتجاه داخلي يلتقي طرفاه في بؤرة واحدة ، وتكون أداة الربط هي محور الحركة ومنها يحدث التوتر بين الجانبين أو الطرفين))[٢] ، فلكلّ أداة دلالتها فضلاً عن دلالة فعل الشرط وجزائه ، فالأسلوب الشرطي ينماز بعملية ربط وتعليق ، وهذا ما يرفد الأسلوب بسيرورة خطابية تكتمل باكتمال المعنى المتوقف على الجزأين ، ممّا يمدّه بدلالات بلاغية متجددة.

المحور الأول : الجملة الشرطية بين الأسلوب الخبري والإنشائي

التفت البلاغيون إلى التراكيب النحوية وتوجيهها الدلالي ، وأفردوا صفحات للحديث في أشكالها ومطابقة نسبتها الكلامية للواقع بين الصدق والكذب أو انتفائه ؛ لتكون إنشائية أو خبرية، فالجملة الخبرية ما تحتمل الصدق والكذب في ذاتها ، والإنشائية لا تحتمل ذلك[٣] ، وكان للجملة الشرطية نصيب في ذلك ، ولكنها تختلف عن الجمل الأخرى في بنيتها التركيبية من تعالقها بين الشرط والجزاء بأداة ، وما ذكره عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) عنها قوله :((الشرط والجزاء جملتان، ولكنا نقول: إنّ حكمهما حكم جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد في امتناع أن تحصل به الفائدة))[٤]، لذا نلحظ أن البلاغيين لم يتفقوا على رأي واحد إن كانت الجملة الشرطية خبرية أم إنشائية ، فقد ذكر ابن وهب الكاتب (ت٣٣٥) إن ((الصدق والكذب يستعملان في الخبر ... والخبر منه الجزم ، ومنه المستثنى , ومنه ذو شرط ... وذو الشرط: إذا قام زيد صرت إليك، فإنما يجب مصيره إليه إذا قام زيد، فهو متعلق بشرط))[٥] ، فالجملة الشرطية ضمن الأسلوب الخبري عنده ، بشرطها وجزائها ، وقال السكاكي في مفتاحه : ((إن الجملة الشرطية جملة خبرية مقيّدة بقيد مخصوص ، محتملة في نفسها للصدق والكذب))[٦] ، يُرجح السكاكي الجملة الشرطية للخبرية ، ولكنّه قيّدها بقيد مخصوص؛ أي تكون خبرية إن تحقق قيدها .

وحاول سعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ) الوقوف على القيد الذي فرضه السكاكي على الجملة الشرطية لتكون ضمن الكلام الخبري لا الإنشائي قائلاً : ((بناءً على أنه في بحث تقييد المسند الخبري ، وأمّا نفس الشرط بدون جزاء فليس قطعاً ؛ لأنّ الحرف قد أخرجته إلى الإنشاء كالاستفهام ... إن الجزاء جملة خبرية مقيدة بقيد مخصوص ، لا مع التقييد به على ما ظن ؛ لأن التقييد بالشرط يخرجها عن الخبرية وعن احتمال الصدق والكذب ، ولهذه الدقيقة قيّده بقوله: في نفسها فتعسّف منه وتخليط لكلام أهل العربية))[٧] ، وساق حديثاً طويلاً يفصّل فيه الرأي المنطقي لقضية الشرط والجزاء ورأي أهل العربية ، والفرق بينهما دلالياً ، بالنظر إلى الجزاء لتعيين الخبرية من الإنشائية أو إلى الشرط ، لذا نراه في المختصر ذكر قائلا : ((إن كان الجزاء خبراً فالجملة الشرطية خبرية ، نحو إن جئتني أكرمك ، وإن كان انشائيا فإنشائية نحو إن

جاءك زيد فأكرمه ، وأمّا نفس الشرط فقد أخرجته الأدلة عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب ، وما يقال من إن كلاً من الشرط والجزاء خارج عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب ، وإنما الخبر هو مجموع الشرط والجزاء ... إنما هو اعتبار المنطقيين))[٨] وهنا أعطى الحكم إلى الجزاء باحتمالية الصدق والكذب ، وفي كونها انشائية أو خبرية ، وأعطى حكماً آخر للنظر في الشرط بمعزل عن الجزاء يخرجه من الخبرية والاحتمالية بتحققها من عدمه ؛ فالحرف الشرطي الذي تقيّدت به جملة الشرط يجعلها إنشائية كالاستفهام ، ومنهم من يؤول كلامه على أن فيه مضاف إليه محذوف ، إذ كان قاصداً أن الحرف أخرجه إلى حكم الإنشاء بعدم احتمال الصدق أو الكذب[٩].

ويرجع التفتازاني إلى النحو العربي عن اقتصار المعنى في عدم اكتمال بنائه، نحو : (زيد قائم) بدون إعراب ، أو بدخول أداة الشرط عليها (إن قام زيد) فالكلام يحتاج إلى تتمّة[١٠]، وبدونها يُجرد من المعنى، كونها جملة غير مكتملة المعنى ، فالجملة الشرطية تنماز بترابط الجزأين، فلا يكتمل معنى الأولى (الشرط) إلّا بوجود الثانية (الجزاء).

وبذلك تكون الجملة الشرطية تتحمل الخبرية أو الإنشائية على حسب المعنى الذي تحمله ، ((والذي يوصف بالخبر أو الإنشاء هو الشرط والجواب معاً ، أمّا الجملة الأولى وحدها _أعني فعل الشرط_ فليس كذلك؛ لأنّها لا تفيد فائدة تامة ، ولا تحتمل صدقاً ولا كذباً))[١١]، ولعلّ ذلك يعود إلى دلالة القيد الذي ذكره السكاكي آنفاً وهو بالنظر إلى الجزاء أو جواب الشرط ، فهو نتيجة أو سبب قُيد لمُسبب ذُكر مسبقاً في فعل الشرط ، فالخبرية بتطابق تحقق الجزاء للفعل هي النسبة الكلامية التي يقاس بها صدق الخبر من كذبه للنسبة الواقعية.

ويرى الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ) : ((إن الخبر إذا قيد حكمه بزمان ، أو قيد آخر ، كان صدقه بتحقق حكمه في ذلك الزمان ، أو مع ذلك القيد ، وكذبه بعدمه ، فيه أو معه ، وإذا لم يقيد صدقه بتحققه في الجملة ، وكذبه بمقابله))[١٢] ، فالجملة الشرطية على حدّ قوله هي خبرية لا إنشائية ، وقيد شرطها يتوقف على تحقق جزائها ، فإن تحقق تكون صادقة ، وبعدم التحقق تكون كاذبة ، ويوضّح ذلك بتعليقه على جملة (إن جئتني أكرمك) _وهو يرد على التفتازاني _ قائلاً : ((إن مجموع الشرط والجزاء كلام واحد ، وعلى أن الغرض الأصلي معرفة كون الجزاء معلقاً ، لا معرفة كون الشرط معلقاً عليه ، وما توهمه فاسد ؛ لأن التعليق والشرطية مراد من قولك: ((على تقدير مجيئك)) أو ((وقت مجيئك))، وإلا لم يكن صحيحاً لما قررناه. وإذا وقع الجزاء إنشاء، كقولك: ((إن جاءك زيد فأكرمه)) كان مؤولاً ، أي : ((إن جاءك فأنت مأمور بإكرامه)) أو ((يستحق هو أن تؤمر بإكرامه))))[١٣] فالجملة الشرطية عنده هي خبرية سواء أكان جزاؤها خبرياً أو إنشائياً ، على أن الجملة الإنشائية تؤول للخبرية، وهو بذلك يختلف مع التفتازاني _الذي اتفق معه عصام الدين الحنفي (ت٩٤٣هـ)[١٤]_ في تفسير رأي السكاكي ،

ولعله أقرب للأخير ؛ كون السكاكي حصر الكلام بين الخبر والطلب ، واضعاً تحت الخبر تفصيلات كثيرة للمسند وللمسند إليه ، وعدّ الشرط أحد صورها في تقييد المسند ، ضمن الخبر.

المحور الثاني : العلاقة البنائية بين الأداة والزمن في أسلوب الشرط

اهتم البلاغيون بالتراكيب النحوية وأثرها الدلالي لما تحمله من أبعاد تعبيرية وتأثرية على المتلقي، وكان لهم حديث مفصّل في أحوال الجملة العربية من مسند ومسند إليه ، منها عملية التقييد الناتجة عن تقييد المسند بأداة الشرط السابقة له ، ولاسيما الأدوات الثلاث (إن) و(إذا) و(لو) والوقع الدلالي المترتب على الجملة التي ترد فيها هذه الأدوات ، ولم تحظَ باقي الأدوات باهتمام البلاغيين ، لما تحمله هذه الأدوات من اعتبارات[١٥] سياقية تختلف باختلاف أزمنة الأفعال التي تقيّدها ولعل من أقدم الإشارات إلى ذلك إجابة الخليل (ت ١٧٠هـ) لسيبويه (١٨٠هـ) حينما سأله عن (إذا) قائلاً: ((وسألته عن إذا، ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل في (إذا) بمنزلته في (إذ) ... فـ(إذا) فيما تستقبل بمنزلة (إذ) فيما مضى))[١٦]، فهي تستعمل مع الزمن الماضي المجزوم بوقوعه بلا شكّ ، على خلاف (إن) التي تأتي مع زمن المستقبل لأمور غير مقطوع بوقوعها ، إذ قال عنهما عبد القاهر الجرجاني : ((وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء ... بـ(إن) فيما يترجح أن يكون ، وأن لا يكون ، وبـ(إذا) فيما علم أنه كائن))[١٧]، وكلاهما للشرط في الاستقبال عند السكاكي ، ويختلفان بين المشكوك بوقوعه في (إن) ، والمقطوع بوقوعه في (إذا)[١٨] ، فالاستقبال أساس كائن في أسلوب الشرط ، وقد بيّن الخطيب القزويني الفرق بينهما في العملية الإجرائية وأبعادها الدلالية عند المتلقي لكل منهما ، على الرغم من اتفاقهما في تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط في المستقبل ، قائلاً : ((أن، وإذا، فهما للشرط في الاستقبال، لكنّهما يفترقان في شيء، وهو أن الأصل في (أن) ألا يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه ، كما تقول لصاحبك: "إن تكرمني أكرمك"، وأنت لا تقطع بأنه يكرمك، والأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه ، كما تقول : إذا زالت الشمس آتيك، ولذلك كان الحكم النادر موقعاً؛ لأن النادر غير مقطوع به في غالب الأمر))[١٩]، وهنا يوضّح لنا القزويني إجرائية كلا الأداتين ، فكلاهما يتضمنان معنى الاستقبال ((أي لتعليق حصول الجزاء بحصول الشرط في الاستقبال))[٢٠]، فالعلاقة طردية بين الجزاء والشرط ، ويتوقف تحقق الجزاء على تحقق الشرط .

ويرى يحيى العلوي (ت٧٤٥هـ) إن الأدوات الشرطية تتلاءم مع أفعالها التي اختصت بها دلالياً، إذ قال: ((اعلم أن جميع الشروط كلها مختصة بالأفعال ؛ لأنها تتجدد والأفعال متجددة ، فلا جرم ناسب معناها الفعل فاختصت به))[٢١]، فالعلاقة البنائية بين الأداة وفعلها الزمني تمنح السياق معنى خطابياً متغير الدلالة بحسب تلك الأداة واقترانها بزمن الفعل ؛ لتتمحور بين جدلية

الشك واليقين ، بعدم الجزم للوقوع ، أو الجزم بوقوعه ، فضلاً عن اقترانهما بالجواب الشرطي المعلّق على تلك التركيبة العلائقية ، ويذكر عصام الدين الحنفي (ت٩٤٣هـ) : إن الشرط ((مع (إن) مفهومه عدمي، ومفهوم (إذا) وجودي))[٢٢]، فالتناسب الدلالي متناغم بين معنى الأداة وزمن الفعل الذي اقترنت به.

وقد تنبّه البلاغيون إلى مقامية الخطاب لأسلوب الشرط بالنسبة إلى المتكلّم ، بجعل زمن الفعل معياراً مقامياً للدلالة التي يرمي إليها ، فالخطيب القزويني يعلل اقتران المضارع مع (إن) مقامياً بقوله : ((ولذلك كان الحكم النادر موقعاً لـ(إن) ؛ لأنّ النادر غير مقطوع به في غالب الأمر ، وغلب لفظ الماضي مع (إذا) ؛ لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع))[٢٣]، ويفسر الدسوقي ذلك برجوع مقامية (إن) إلى أمرين : أحدهما: قليل الوقوع بسبب ندرته ؛ أي ما يقع مرة أو مرتين لا غير ، وثانيهما : يظن بعدم وقوعه مستقبلاً ويرجحه على الوقوع[٢٤]، فمقام المتكلّم ومبتغاه يفرض سياقاً دلالياً بين بنيتي الوقوع وعدمه ، أو يكون ((المتكلم باستعماله صيغة الماضي يوهم السامع برجحان أحد الطرفين على الآخر ، ومعنى هذا أن تصور الطرف الثاني ما يزال قائماً))[٢٥].

أمّا الأداة (لو) فقد كان لها نصيب في دراسات البلاغيين ورؤاهم الدلالية ، فهي عند السكاكي : ((لتعليق ما امتنع بامتناع غيره على سبيل القطع ... امتنعت جملتاها عن الثبوت ، ولزم أن يكونا فعليتين ، والفعل ماضٍ))[٢٦]، واتفق معه البلاغيون على أنها تدخل على الفعل الماضي ؛ لانتفاء وقوعها.

وإن هندسة البنية الكلامية لأسلوب الشرط تكون بوساطة اتفاق دلالة الأداة مع الدلالة الزمنية للفعل ، فـ(((إن) إنما يكون ورودها في الأمور المحتملة المشكوك في وقوعها كقوله تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[٢٧] ... وتختص بالأزمنة المستقبلية ؛ لأنّ الشرط لا يعقل إلّا فيما كان مستقبلا ، وأمّا (إذا) فإنها تستعمل في الأمور المحققة كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[٢٨]... فهذه الأمور كلها محققة فلهذا حسن دخول (إذا) فيها ، وأما (لو) فهي شرط في الماضي عكس (إن) ومعناها امتناع لامتناع غيره... كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾[٢٩]))[٣٠]، فارتبطت (إن) بالأمور الاحتمالية الوقوع ؛ لذا غلب اقترانها بالفعل المضارع الدال على التجدد ، و(إذا) ارتبطت بالأمور الحتمية الوقوع ؛ لذا اقترنت بالماضي لدلالته الثبوتية ، وارتبطت (لو) بامتناع الجزاء لامتناع الشرط ؛ لذا اقترنت بالماضي ، فالتناسب الدلالي والبنائي يشكل محوراً كاشفاً عن الدلالة في الأسلوب الشرطي.

المحور الثالث : أسلوب الشرط وأثره الدلالي

إن السياقات الخطابية البلاغية تُنتج لتحقيق وظيفتها التواصلية والجمالية ، لما تفرضه من طريقة طرح المعنى بأسلوب دلالي له أثره في متلقيه ، ويعد أسلوب الشرط أحد الأساليب التي

يستثمرها المتكلّم أو الأديب بوساطة تحفيز ذهن المتلقي لأمور معلّقة مستقبلاً ، ولآليات الربط الدلالي بين أداة وشرطها وتعلّقهما بجواب الشرط ، فهي بنية تعالقية ترابطية في المبنى والمعنى، وقد ركّز البلاغيون على تلك العلائقية من جهتين : الأولى : الربط الدلالي بين الأداة وزمن الشرط والأثر المعنوي المتشكّل جراء هذه البنية التي فرضها البناء المعياري للغة ، والثانية : الربط الدلالي بين الأداة وزمن الشرط الخارج عن الحدود المعيارية لأغراض مجازية.

- **البنية المعيارية لأسلوب الشرط**

تتمثل هذه البنية باقتران دلالة أداة الشرط مع دلالة الشرط وزمنه اقتراناً معيارياً ، على وفق ما ذكره البلاغيون عن استعمالات كل من (إن) و(إذا) و(لو) مع ما يجانسها من أفعال الشرط بين مضارع وماضٍ ، ونظروا إلى هذه الآليات وما تصحبه من معان كائنة في أصل الدلالة ، كقوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾[٣١]، وعلل السكاكي دخول (إذا) في جانب الحسنة؛ كون وقوعها مقطوعاً به وحتمي ، وجيء بـ(إن) مع السيئة ؛ كونها لا تقع إلّا نادراً بالنسبة للحسنة المطلقة[٣٢]، لذا وردت إذا مع المجزوم بوقوعه ودخلت على شرط ماضٍ متسقاً مع دلالة الجزم بالوقوع ، ووردت (إن) مع السيئة التي تتسم بندرتها إذا نظرنا إليها قياساً بالحسنة ، وجاءت البنية منسجمة من الشرط في المستقبل ، فنظر البلاغيون إلى هذا الترابط الدلالي بين الأداة وزمن الفعل ، وعدّ هذا النسق التركيبي معياراً لغوياً ، وهو أصل كائن في الدلالة ، وفي حال العدول عنه عبر تبديل زمن الفعل يعد انزياحاً.

أما بالنسبة إلى الأداة (لو) فدخولها على الفعل الماضي كون اشتغالها ((لتعليق ما امتنع بامتناع غيره على سبيل القطع))[٣٣] ، فهي تأتي ((لما لم يقع في الماضي ، ولكنّه كان في الماضي متوقعاً لوقوع غيره))[٣٤] فترابطها الدلالي يكون في الزمن الماضي لا المستقبل ؛ لامتناع الثاني عمّا امتنع منه الأول ((بمعنى أنها تدل على ارتباط مضمون الجزاء بمضمون الشرط فيما مضى ، فيلزم من هذا كون جملتيها فعليتين ماضيتين))[٣٥]، فالبنية التركيبية والدلالة الأسلوبية بين الشرط والجزاء تكون قطعية ، أي لا تحتمل الشك كما في (إن) ؛ وذلك يتأتّى من امتناع وقوعهما ، وهذا ما جعل (لو) رابطة بين فعلين ماضيين.

- **البنية الانزياحية لأسلوب الشرط**

إن انزياح البينة عن معياريتها يثمر في ولادة معانٍ جديدة ، تفرضها السياقات التكوينية المحتضنة لتلك البنية ، وكان لأسلوب الشرط نصيب بوساطة انزياح اللغة إلى أبعاد مجازية ، وذلك باستعمال (إن) مع أمور حتمية مقطوع بوقوعها ، على غير أصلها لهدف بلاغي قصده المتكلّم ، أو كالتجاهل، أو أن المخاطب ليس بجازم ما يقوله و يدعيه ، أو تنزيل المخاطب منزلة الجاهل ، أو لاعتبارات بلاغية مختلفة ، منها :

_ مقام التوبيخ : كقوله تعالى : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾[٣٦] لقصد التوبيخ والتجهيل في ارتكاب الاسراف ، أو للتعريض : كقوله تعالى : ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣٧]، أو للتفاؤل أو لإظهار الرغبة[٣٨] في تحقق الشرط وحصوله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣٩] إظهاراً لرغبة الفتيات في وقوع إرادة التحصن ، فقد آثرن التحصن على الفاحشة[٤٠]، وهذه البنية عدّها البلاغيون من النكت البلاغية ، أو أن البينة التركيبية ماضوية والدلالة التأويلية مستقبلية ، فيأتي الماضي مع أن للتعبير عن المستقبل[٤١]، فضلاً عن تفسير الزمخشري(ت٥٣٨هـ) لقوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[٤٢]، أنه جيء بـ(أن) المستعملة مع المشكوك لوجهين : الأول : الشكّ الكائن في قلوبهم لاتكالهم على فصاحتهم ، والثاني : التهكم بهم[٤٣] ، وهذه الرؤى البلاغية تدلّ على أن العلاقة بين البنية السطحية والعميقة لأسلوب الشرط علاقة عكسية البناء ومتوافقة التعبير الدلالي ، فدلالة الأفعال هي الموجّه الأساس لسياق النص دلالياً ، فقد يكون استعمال (إن) مع الماضي كون ((المتكلم لأمر ما كأنه يستبعد وقوع هذه الاحداثيات الكائنة قطعا ؛ لأن المهم ليس هو الأشياء كما هي في الواقع ، وإنما المهم هو حس المتكلّم ... وهكذا ليست التعبيرات في الحقيقة إلّا مظهراً للرؤية النفسية ، وانعكاساً للاستجابات الداخلية))[٤٤]، فبنية الأسلوب في الشرط لها ارتباطات تتعلّق بمنتح النصّ وتأثيرات على متلقيه.

_ التغليب : وقد ذكر البلاغيون فيه آراء كثيرة ، ويقصد به : ((إعطاء الشيء حكم غيره، و قيل ترجيح أحد المغلوبين على الآخر أو إطلاق لفظه عليهما إجراء المختلفين مجرى المتّفقين))[٤٥]، ومن ذلك رأي السكاكي في قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ؛ جيء ((بلفظ إن مع المرتابين فإما لقصد التوبيخ على الريبة ؛ لاشتمال المقام على ما يقلعها عن أصلها ، وتصوير أن المقام لا يصلح إلا لمجرد الفرض للارتياب))[٤٦] ، واتفق معه الخطيب القزويني ، موضحاً ذلك بقوله : ((ويحتمل أن يكون لتغليب غير المرتابين على المرتابين منهم ، فإنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكر عناداً))[٤٧] ، ويرد التفتازاني على هذا التخريج البلاغي كون (إن) تستعمل في الأمور غير المجزوم بقطعها قائلاً : ((إذا جعل الجميع بمنزلة غير المرتابين كان الشرط قطعي اللاوقوع ، فلا يصح استعمال إن فيه ... بل لابدّ من أن يقال : لما غلب صار الجميع بمنزلة غير المرتابين فصار الشرط قطعي الانتفاء ؛ فاستعمل فيه (إن) على سبيل الفرض والتقدير للتبكيت والإلزام))[٤٨]، فاختلف التفتازاني في الغاية البلاغية .

وأضاف السبكي استعمالاً مجازياً آخر للأداة (إن) بقوله : ((كما تستعمل إن في المجزوم به تستعمل في المستحيل ، وكلاهما خلاف الأصل))[٤٩]، أي أنها ممكن أن تدخل على فعل يعطي يعطي معنى الاستحالة.

وأما دخول الأداة (لو) على المضارع في قوله تعالى : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[٥٠] فعلى حدّ قول القزويني دخولها كان : ((لقصد استمرار الفعل فيما ما مضى وقتاً فوقتاً))[٥١] ، فالدلالة التي يحملها الفعل في السياق النصي دلالة ماضوية في بنية استقبالية ، أو لتنزيل الشرط منزلة الماضي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٥٢] إذ أن لا خلاف في الأخبار الصادرة عنه ، أو استحضاراً لصور بلاغية مرئية ؛ لتحمل وقعاً دلالياً تأثيرياً عند المتلقين[٥٣] ، لذا البنية الدلالية العميقة للأداة (لو) لأمور تعليقها ممتنع مقطوع ، وإن كانت بنيتها السطحية استقبالية فترتبط دلالتها البلاغية بلمسة ماضوية في المعنى.

اتفق البلاغيون على أن ابتعاد بنية أسلوب الشرط عن المعيارية يعد من الانزياح الدلالي لتوليد معنى جديد ، ولكنّ تأويلاتهم المجازية ورؤاهم الدلالية تعددت كلٌّ بحسب قراءته الدقيقة وتوجيه المعنى لديه، ممّا يدلّ على الانفتاح العقلي والمعرفي ، فالتأويل الدلالي للنصوص لا يقف عند حدود معينة ، وإنّما ينفتح على فضاء النص ، مستمداً منه القرائن التي تزود تلك التأويلات.

الخاتمة :

بعد القراءة لموضوع أسلوب الشرط من منظور البلاغيين توصلت إلى جملة من النتائج ، وهي كالآتي:

١- البنية التركيبة لأسلوب الشرط لها أثرها البلاغي المتولّد مع عملية الربط العلائقي بين جملتين ، وتوقف إحداهما على الأخرى.

٢- إن الأدوات الشرطية التي توقف عندها البلاغيون تمثّلت بإمكانيتها وقدرتها على التنوع الدلالي النابع من بنائها الداخلي ، أو من انزياحها عن المعيارية التركيبية لترفد النص بدلالات أُخرى ، من سياقها الذي نُسجت فيه.

٣- الرؤى البلاغية تعددت إن كان الشرط أسلوباً خبريا أم إنشائيا ، ويمكن هذا من بنيتها التعالقية بين جزأين ، ولا يتم المعنى إلّا بهما ، لذا نُظر إليه أسلوباً خبرياً ، فتحقق الجزاء من عدمه ، هو يدخل في دلالة الخبر مع تحققه في الواقع من عدمه.

٤- بحث البلاغيون في البنية التركيبة لأسلوب الشرط العلاقة الدلالية بين دلالة الأداة ودلالة الفعل أي زمانه ، وما ينشب عن تلك العلاقة أثر معنوي معلّق على جزاء مستقبلي ، فدلالة الجزاء استقبالية متوقّفة على الشرط.

٥- نظر البلاغيون إلى استعمال أدوات الشرط في شقين : أحدهما : الاستعمال الدلالي على وفق بنائية معيارية ، فـ(إن) تقترن بالأمور المشكوكة و(إذا) تقترن بالأمور الحتمية ، و(لو) تقترن بامتناع لامتناع، وثانيهما : الاستعمال الانزياحي على وفق بنائية مغايرة ، فاقتران (إن) بالشرط الحتمي ، و(لو) بالاحتمالي يكسب النص دلالات مختلفة بحسب المقام الذي ترد فيه ،

ولم يفصّلوا القول في اقتران (إذا) بالشرط الاحتمالي على الرغم من وجود نصوص كثيرة تحمل هذه البنية ، ذُكرت على يد باحثين معاصرين.

٦- إن البلاغيين درسوا التوازن والتناغم الدلالي في أسلوب الشرط عن طريق الشواهد المتنوعة، بوصفه منبّهاً أسلوبياً يمتلك تأثيراً خطابياً على متلقيه.

الهوامش

[١]) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها : ٤٧١/١.

[٢]) جدلية الافراد والتركيب : ١٧٩.

[٣]) ينظر : الطراز : ١٦٢/٣ ، وينظر : بلاغة التراكيب :١٤.

[٤]) أسرار البلاغة : ١٦٣.

[٥]) البرهان في وجوه البيان : ١١٣.

[٦]) مفتاح العلوم : ٣١٠.

[٧]) المطول : ٣١٦.

[٨]) مختصر المعاني : ٨٨.

[٩]) ينظر : تجريد البناني : ١/ ٣٣٦.

[١٠]) ينظر : التفتازاني وآراؤه البلاغية : ٣٠٤.

[١١])البلاغة فنونها وأفنانها : ١/ ٣٣٧.

[١٢]) الحاشية على المطول : ١٨٧.

[١٣]) المصدر نفسه : ١٨٨-١٨٩.

[١٤]) ينظر : الأطول : ٤٧٠/١.

[١٥])ينظر : الايضاح : ١١٦/٢.

[١٦]) الكتاب : ٦٠/٣.

[١٧])دلائل الإعجاز : ٨٢.

[١٨]) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٤٦-٣٤٧ ، وينظر : المصباح في البيان والمعاني والبديع : ٥٢.

[١٩])الايضاح : ١١٧/٢.

[٢٠])بغية الايضاح : ١٨٦/١.

[٢١]) الطراز : ٣/ ١٦٤.

[٢٢])الأطول : ٤٥٧/١.

[٢٣])الايضاح : ٢/ ١١٧ ، وينظر : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني : ١٩٧.

[٢٤])ينظر : حاشية الدسوقي : ٥٥/٢.

[٢٥])في النقد العربي نفد وتوجيه : ٢٩٦.

[٢٦]) مفتاح العلوم : ٣٥٤.

[٢٧]) سورة التوبة : آية ٨٠.

[٢٨])سورة الزلزلة : آية ١ .

[٢٩]) سورة البقرة : آية ٢٠.

[٣٠]) الطراز : ١٥٣/٣.

[٣١]) سورة الأعراف : آية ١٣١.

[٣٢]) ينظر مفتاح العلوم : ٣٤٧ .

[٣٣]) مفتاح العلوم : ٣٥٤.

[٣٤]) عروس الأفراح : ١/ ٣٣٧.

[٣٥]) علم المعاني ، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني : ٢١٣.

[٣٦]) سورة الزخرف : آية ٥.

[٣٧]) سورة البقرة : آية ٢٠٩.

[٣٨]) ينظر مفتاح العلوم : ٣٤٨ – ٣٥٢ ، وينظر الايضاح : رقم الجزء / ١٢٢-١٢٣.

[٣٩]) سورة النور : آية ٣٣.

[٤٠]) ينظر الكشاف : ٣٠٤/٤-٣٠٥ .

[٤١]) ينظر : الإشارات والتنبيهات : ٦٠.

[٤٢]) سورة البقرة : آية ٢٤.

[٤٣]) ينظر : الكشاف : ١ / ٢٢٣.

[٤٤]) خصائص التراكيب : ٣٣٦.

[٤٥]) البرهان في علوم القرآن : ٣٠٢/٣.

[٤٦]) مفتاح العلوم : ٣٤٨.

[٤٧]) الايضاح : ١٢٠/٢.

[٤٨]) مختصر المعاني : ٩٠-٩١.

[٤٩]) عروس الأفراح : ٣٣١/١.

[٥٠])سورة الحجرات : آية ٧.

[٥١]) الايضاح : ١٢٦/٢.

[٥٢]) سورة السجدة : آية ١٢.

[٥٣]) ينظر : الأطول : ١/ ٣٩، وينظر : علم المعاني ، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني : ٢١٤.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، د. ت .
- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، تح : د. عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٧م.
- الأطول ، شرح تلخيص المفتاح ، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، تح:د. عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١م.
- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرح وتعليق : د. محمّد عبد المنعم خفاجي ، ط٣ ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٩٩٣م .
- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشي ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٨٤م .
- البرهان في وجوه البيان ، أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، تح : د. أحمد مطلوب ، ود. خديجة الحديثي ، ط١ ،ساعدت جامعة بغداد على النشر، مطبعة العاني، ١٩٦٧م .
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ، ط٨ ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، د.ت .
- بلاغة التراكيب ، دراسة في علم المعاني ، د. توفيق الفيل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩١م .
- البلاغة العربية أُسسها , وعلومها ، وفنونها , وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد ، عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني ، ط١ ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ١٩٩٦م .
- البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ، د. فضل حسن عباس ، ط١٢ ، دار النفائس ، الأردن ، ٢٠٠٩م .
- تجريد البنَّاني على مختصر التفتازاني ، بولاق ، ١٢٩٧هـ.
- التفتازاني وآراؤه البلاغية ، ضياء الدين القالش ، ط١ ، دار النوادر ، دمشق ، ٢٠١٠م.
- جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم , د. محمد عبد المطلب ، ط١ ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، الشركة المصرية العالمية لونجمان ، مصر ، ١٩٩٥م .
- حاشية الدسوقي على مختصر السعد ، محمد بن عرفة الدسوقي ، تح:د. عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، شركة أبناء شريف الانصاري للطباعة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٧م.

- الحاشية على المطول ، شرح تلخيص مفتاح العلوم في علوم البلاغة ، الشريف الجرجاني أبو الحسن علي بن محمد بن علي ، قراءة وتعليق : د.رشيد أعرضي ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٧م.

- خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د.محمد محمد أبو موسى ، ط٤ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تح: محمود محمد شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الخانجي ، ٢٠٠٠م.

- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني ، تح : د. عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٢م .

- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ط٣ ،مؤسسة المختار ، القاهرة ، ٢٠١٠.

- في النحو العربي نقد وتوجيه ، د.مهدي المخزومي ، ط٢ ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٦م.

- الكتاب ، كتاب سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح : عبد السلام محمد هارون , ط٣ , مكتبة الخانجي , القاهرة , ١٩٨٨م .

- كتاب عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي ، تح : د. عبد الحميد هنداوي، ط١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٣م .

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمّد معوّض، وشارك في التحقيق : د. فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي ، ط١، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٩٩٨م .

- مختصر المعاني ، سعد الدين التفتازاني ، ط١ ، دار الفكر ، قم ، ١٤١١هـ.

- المصباح في البيان والمعاني والبديع ، بدر الدين بن مالك الشهير بابن النظام ، تح: د.حسني عبد الجليل يوسف ، مكتبة الآداب ، مصر ، د.ت.

- المطول ، شرح تلخيص المفتاح ، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، تح: د.عبد الحميد هنداوي ، ط٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠١٣م.

- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي ، تح: د.عبد الحميد هنداوي، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م.